جريدة الديار تاريخ ٢٠٠٨/٥/٥

دراسة نقدية حول رواية «..وتحقق الأمل»..

قلباً واحداً اشتغلن، صوتاً واحداً تكلمن، ويدا واحدة كتبن الكاتبات الثلاث، في اثناء إعداد روايتهن الاولى «...وتحقق الأمل»، إنهن: المهندسة هيفاء العرب، الاستاذة لبنى نويهض، والمهندسة ندى شحادة معوض. والكتاب يضم ٣٠٤ صفحات من الحجم الوسط، منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء، بيروت.

تشدّك رواية «...وتحقق الأمل» وانت تقرأها بشوق ونهم من الغلاف الى الغلاف، وعندما تخال نفسك انهيت هذه التحفة الادبية، تدرك ان ذهنك ما زال اسير قصة لينا (بطلة الرواية) والعبر الحياتية المنطوية ضمنها.. اذ تنقلك سيرتها الشيقة في رحلة الى عالم لا مستحيل فيه، الى عالم حيث نور المعرفة، أسرار الوعي، عظمة الحب، رقة الجمال، وشفافية الصدق وكل ما يفيض عنهما ومنهما قادر على تحقيق الاعاجيب في حياة لينا او في حياة أي امرىء آخر صقلته التجربة وأعتبر..

«..وتحقق الأمل» قصة واقعية لإمرأة اطاحت بها العاطفة وروضها الحب.. قصة الفتاة اليانعة، الغضة العود الساحرة بجمالها، والتي بحثت عن السعادة بعيدا عن الحب فلم تجدها. لم تجد السعادة، لا في الثراء ولا في الجمال. وطبعاً لا في الجهل والضياع والخداع وكل ما يعتمل في صدر المرأة من حريات زائفة، بل وجدتها في حب انساني، انتشلها من بؤرة عذابها، من مأساة حياتها وضياعه.. وكأن الحب محور وجود النفس البشرية على الأرض حيث تجدها (النفس) الأشد ظمأ له (للحب)، والأشد تألماً من دونه..

«..وتحقق الأمل» بما يتخلله من تشويق، ومن بعد وعمق وتحليل دقيق ينطوي على رقة هفهافة وشفافية تصوير تطال ما لا يخطر في البال، وما لا تستطيع غير المرأة كشفه لجهة فهم دواخل المرأة، يروي قصة حقيقية من صميم الحياة المعاصرة، ترتكز اهميتها على ما لا يمكن للانسان ان يستمتع من دونهما: الفكر والعاطفة.. محبوكان في وحدة حياتية متلازمة، ارتقاء نحو اسرار سعادة الحب والتنعم في عيش الحياة كالمخلوقات النورانية.

«..وتحقق الأمل» فتح جديد في الرواية العربية الحديثة يكشف على الملأ ان الارض مدرسة الإنسان الحياتية ومرتع تعلمه من الخطأ - مع أن «الارض ليست موطن الملائكة».. فالرواية تشرح كيف ان وجود الألم في الحياة أعمق من وجود اللذة. اذ إن هذه الأخيرة تتبدد بسرعة متناهية، اما الألم فيتمدد ويتملك على النفوس والأذهان ولا يتركها غير دامية مثخنة بالجراح. فما كان الألم والمعاناة سوى وسيلة تفتح وعي الانسان الغافل، مع العلم ان في كل لحظة ألم عبرة!

لعل أولى الخطوات نحو الوعي، بغاية ادراك اسباب الألم والمعاناة هي الاعتراف - الاعتراف بالخطأ والهفوات والنقصان.. الإعتراف بما يختلج في النفس من احاسيس من مشاعر وعواطف وأفكار.. والأهم الإعتراف بكل مكبوت لا يجرؤ المرء أن يصرح به..

كلمة حق تقال في «..وتحقق الأمل» انه سلسلة اعترافات، مكاشفات ومصارحات، مواجهات ومجابهات.. جميعها تستقطب تعرية الفكر والنفس.. جميعها تستدعي وتسترعي وقفة تأمل في مآسي الحياة وسعادتها، في محبتها القاسية وفي حكمتها الرؤوفة.. وقفة تكشف للقارىء الحصيف ما يحققه البعض في الحياة وما قد تحققه الحياة في نفوس البعض الآخر.

وما أجمل من الإعتراف بالخطأ غير تصحيحه، وبسرعة..

أبطال رواية «..وتحقق الأمل» اربعة، متناقضو الشخصية، إنما يجمعهم هدف مشترك هو إنقاذ المرأة في عهدتهم. مسرح القصة واقع تصرفات كل منهم بما تشهده من تحايل ومراوغة وخداع وعذاب الى حد المأساة، ومن عذوبة ورقة الى حد الشفافية، ومن قسوة الى حد البطش، واستنزاف يجاري الموت البطيء! ومهما بلغ التكدر اشده، فلا تخلو النفوس من لحظات صفاء وعودة الى الذات بهدف الاعتراف بالاخطاء وتصحيحها. نعم لقد اعترف الابطال الأربعة بالخطأ وعملوا على تصحيحه.. وجاءت الرواية لتشهد ان العودة عن الخطأ هو ما يحول التجارب المختلفة الى خبرات وعي، والأهم لتشهد ايضاً، على أن كل تقهقر وتدرك يقابله تصعّد يوازيه أهمية، وقد يفوقه احياناً ان وعي المرء سبب تقهقره وألمه. وهذه الحقيقة كفيلة بأن تستنهض الهمم للصعود من حضيض اللاوعي والجهل والظلام الى قمم الوعي والمعرفة والنور. وهذا ما حصل في حياة البطلة (لينا) التي تدركت الى الحضيض من خلال غرقها في الطيش، وعبثها بالفضائل وبالحب، وبحثها عن لذة لماعة أفقدتها قيمة المرأة داخلها. لكن إرادتها للحياة جعلت يد الحب تنتشلها من بؤرة ضياعها، فوعت أن الحب، ان الصدق مع النفس وارادة التغيير، كفيلان باستنهاض عزيمة المرء على الإرتقاء من بؤرة الضياع والمخدرات والهلوسة والخيانة والعزلة والوحدة الى أرقى الصفات الإنسانية. وهنا تبرز بجلاء حقيقة أن التجربة الخاطئة لأفضل من اللاتجربة في عرف الحياة، ولعل «الرداء الذي تشرّب القذارة ثم غسل وتنقى، يبان أنظف من الجديد. لأن في الذاكرة تبقى صورته أنه كان قذراً»!

وكمن يبحث عن النور في الديجور، بحثت بطلة الرواية عن بصيص أمل في ظلمة حياتها. هذه الظلمة القاتمة التي لم تكن سوى الوجه الآخر للنور، مما يؤكد أن الحياة واحدة في جوهرها إلا أنها مزدوجة الى حد التناقض في ظاهرها.

فالدروس القاسية التي تلقتها بطلة الرواية، إنما كانت بهدف تحقيق نضج في حياتها لم يحقق، وتفعيل جدية لم تفعّل، وتفتيح إنسانية لم تتفتّح، وتوعية حس مسؤولية لم يستولد، واختبار حب نادر مع رجل نادر ... والاهم هو ان هذا التغيير والنضج والتصعد الحياتي تأتى عن طريق علم الباطن - الايزوتيريك. وهذا ما يؤكد ان درب التصعد على سلم الوعي لا بد وان يبدأ من داخل الانسان - من الباطن وما عدا ذلك يندرج في خانة المحاولات العبثية.

وتبقى الارادة والعزيمة السر وراء الدخول الى هذا الباطن ووراء التغيير المنشود... وان كانت الارادة سر هذا التحول والنهوض، الا ان الصدق مع الذات يبقى هو الحافز.

تستفيض تجربة بطلة الرواية ايضا بعبر وارشادات حول الحب والزواج والحياة المشتركة... حيث ان تجربتها الحياتية حوت نقيضين: الاول جسّد فشلا في العلاقة الزوجية بامتياز، والثاني جسد تجربة حب حقيقية حققت املها في الحياة.

تكشف الرواية ان الفشل في العلاقة الزوجية والطلاق السريع ليسا سوى نتاج ضعف في الحب والمشاركة، واسترخاء في النضج والمسؤولية، وتهاون في التأسيس، وتحايل في التعبير والتواصل مع الشريك، وخاصة ارتباك في ممارسة الصزاحة التي «تنعش الحب والتعبير والعفوية، والاهم الراحة المتبادلة التي يضفيها كل من الحبيبين على الآخر وهو غارق في اعباء الحياة...» فهذا كله كان الشريك يستعيض عنه بشراء العاطفة عن طريق اغداق الهدايا والمال ليتوج الممارسات السلبية في ظل ارتباط مشرذم، والاسوأ من ذلك الاصرار على الممارسة الجنسية تعويضا عن الخلل والبعد النفسي القائم بين الشريكين. ناهيكم عن فعل الوحدة وما تخلفه من شرود وفراغ، من وحشة وغم، من كآبة وتشرذم في نفس امرأة، ولا سيما للمرأة المتزوجة. فصحيح ان شعور الوحدة هو الاشد ظلمة وألما في النفس، الا ان تقبله يختلف لدى الشخص العازب مقارنة بالشخص المرتبط.

كما وتسلط الرواية الضوء الكاشف على واقع مرير يتلخص بوقوف المرأة على حدود جمالها، غموضها، وسحرها لأسر الرجل. وما هذا سوى انتقاص فعلي لحقيقتها كامرأة. هذا الواقع تساوى مع محاولات الرجل في إغداق كل نقيس على المرأة للاحتفاظ بها. أوليست هذه الوسيلة اعلان صامت عن رجولة فارغة؟!

الا ان بطلة الرواية ظلت تتوسل الحب، كل الوان الحب، في ظل جسد هائم ونفس تائهة، وبين تناقضات متكاثرة والام كاوية الى ان وصلت الى حالة اقل ما يقال فيها انها يتآكلها الضياع وتنهشها الرذائل. لكن صدقها في السعي بحثا عن الحب هو ما اوصلها الى دارة رجل حكيم، عرف سبب علتها الخفي. ولان لكل نفس مفتاحها، وجدت بطلة الرواية علاجا لحالتها المعقدة على يد هذا الحكيم الضليع في علوم الباطن الانساني.

ومن ثم عرفت الحب، عرفته عاطفة انسانية روضتها. وظهر الحب نفسه ايجابية في التعامل والمشاركة، صدق في التجاوب والتفاعل والتواصل ولا سيما تمظهر في انسجام فكري - مشاعري - جسدي. وهذا ما أسس لراحة لينا الداخلية وما وسع الهدوء على حساب القلق والنكد، فاستولد الحب ايجابية تصرف في تفاصيل حياتها اليومية على حساب السلبية. وكأن هذا الحب هو الدليل القاطع على كون الحب العامل الاساس لتفتيح وعي النفس الغافل كما يشرح علم الباطن - الايزوتيريك، والذي يؤكد على ان الحب وجد «ليكون احد انماط الوعي، وحقيقة هذا الحب انه وحده هو ما يعبئ نقصان النفس - نقصان المرأة في الرجل ونقصان الرجل في المرأة...» فالنفس تبقى مظلمة من دون الحب ... لان نور الحب يشرق الحياة.ويعيد النبض اليها. وهل اجمل من العبارة التي تفجرت من لواعج قلب بطل الرواية مختبرا جوهر الحب واهميته حين يقول: «ما معنى الحياة لما تبدأ بمجد وتنتهي بمجد ولم ترطب بدمعة حب واحدة».

نعم، حب اصيل، حب انساني مرتكز على ثلاثية خير - ثقة - تقدير. حب يجسد فيه الرجل منتهى الرجول، الرجولة التي تكمن في المسامحة والغفران، عن طريق طي صفحة الماضي على تاريخ امرأة حافل بالاخطاء.

تقدم رواية «...وتحقق الامل» نموذج عن الحب الكبير، الحب الذي عرفته الرواية بالتالي: «الحب كالدائرة، يبدأ حيث ينتهي وينتهي حيث يبدأ ... لذلك فهو أبدي، يمر في مراحل الاعمار ويبقى على اتصال بها ... يبرد ثم يستدفئ فيشتعل. ثم يبدو انه يخمد ليعود من جديد الى الاشتعال. هكذا هو الحب كطائر الفينيق يتجدد فيتجدد مع الدفء. والنبض والتوق الى الحياة الكريمة!

وهل يوجد الحب بعيدا عن الرومنسية ؟!... الرومنسية كلمة السر للعبور الى قلب المرأة وعقلها معا ... الرومنسية التي قد تتجسد كلاما، ام فعلا او حتى صمتا... ولعل الرواية تتضمن من اجمل ما كتب في مناجاة الحبيب لمحبوبته: «حبي كل كان ضائعا في مثلما حب الحق كان ضائعا على وجه الارض، وكنت بشبابي، بقوتي، وتفكيري، افتش عنك في داخلي. وكان فوقي نجم بعيد ساطع الضوء، اتبعه ليلا ونهارا... اؤمن به انه سيوصلني الى المرام ولما قطعت عمر المراهقة وبلغت ذروة الشباب، انتهيت عندئذ الى مهد حبك... وهناك سجدت ثلاثا: لخالقك، ولك، ولتوحد روحينا...»

اما بطلة الرواية فقد ناجت حبيبها معبرة عن تجربتها قائلة «كنت دائما ابحث عن الحب الحقيقي، لكني لم اكن اعرف ما هو، ولم اكن قادرة على ان اعرفه لنفسي او ان ارسم صورته. كنت ابحث عن شيء اتمناه لكن لا اعرفه. معك، بات الحب صورة جلية. وبت ايضا افهم نفسي بوضوح، لا بل اقرب الى نفسي بعد ان كنا غرباء عن بعضنا. رائع ما علمتني، وكم علمتني. جعلتني اكتشف نفسي دونما سفسطة او تعقيد، انما ببساطة وانسيابية وصدق».

حقا ان رواية «...وتحقق الامل» تطرح امام الفكر المتعطش للجديد معادلات حياتية جديدة ومتجددة حول الحب وعلاقته بالجمال والعظمة والخلق والخلود، حيث وعت بطلة الرواية ان «الحياة سلسلة من جمال يتعلق بحب، وحب يتعلق بعظمة، وعظمة تتعلق بخلق، وخلق يتعلق بخلود، وخلود يتعلق من جديد بحب...».

ببليغ العبارة صور الكتاب قصة حب كبيرة يطمح اليها كل شاب وفتاة، حب يتسامى فوق التنغيص والكدر والعذاب والمكابدة والدموع... حب واع حوّل الظلمة الى نور، والالم الى معاناة، والحزن الى سعادة...

«...وتحقق الامل» هو متعة لقارئ ظامئ. رجل وامرأة، ودليل لنفس وحيدة حائرة، كونه كشف في اسرار النفس البشرية ودهاليزها...

ولعل العبرة الابرز يلخصها الكتاب بالقول ان: «أمثولة الحب هي أمثولة الحياة»... وما الحياة غير مراحل وعي وتعلم.

د. رانيا كفروني فرح